«الحضارة بين تخيل الماضى وتصور المستقبل»

عندما أستمع و أرى من يفتخر بالحضارة الفرعونية، السؤال الذى يجول فى خاطرى هو: لماذا يفتخر هذا الشخص بحضارة لم يكن هو من صنّاعها، ولماذا يهتم بها إلى هذا الحد، فالحضارة وهى صناعة من ماضى لأفراد عاشوا وأنتجوا هذه الحضارة، وقد توقفت هذه الحضارة فهى منتهية فنيت بفناء أصحابها ولم يبق إلا آثارهم فيها، إذا كان الأمر لاستلهام قوة معنوية وطاقة تحرّك الإنسان لتنمية نفسة وتطوير مجتمعه فلا غرو فى ذلك، أما الأمر العُجاب فهو أن يهتم فقط الإنسان بالماضى ليعيش به فى خياله ويحول بينه وبين واقعه الحالى، ويفسّر ذلك بعجز الفرد الشديد عن تحقيق إنجاز له فى واقعه المُعاش على المستوى المادى أو المعنوى فيلجأ للماضى ويتخيّل أنه أحد صنّاع هذه الحضارة القديمة، فإنجازه السابق المتخيّل يجعله يستريح عن تحقيق ما ينجزه فى واقعه المعاصر، فهناك تخيُّل الماضى أى صياغته بطريقه يستطيع بها الفرد إشباع العديد من رغباته فى الخيال فى هذا الماضي، وهناك تخيُّل المستقبل وهو ما يميز من ينتمون إلى الحضارات والثقافات الحديثة، وهو عندما يلتقى بالعلم يصنع المعجزات الحضارية، وإذا كانت فى الحضارات القديمة قيم إنسانية تستطيع بها أن تنّمى واقعك فخذها، أما أن تتماهى بها إلى الحد الذى يقصيك عن واقعك وما تنجزه فيه فهى المشكلة . كلنا نعتز بما قدمه أسلافنا فى الحضارات الإنسانية، ولكن للعلم نحن أناس نعيش واقعا جديدا لو كانوا هم يعيشون فيه ما تعاملوا معه مثلنا، إذاً فالعامل الأهم هو الإنسان المتحضّر الذى ينتمى لأجمل القيم الحضارية الإنسانية، وبالفعل التحضّر نوعية حياة ليس فقط بما تشمله من مبانٍ فاخرة وأجهزة حديثة، بل بإدراك ووعى وشعور التحضُّر الذى إذا ما توافر فى أفراد المجتمع عملوا على تنمية مجتمعهم وتطويره ،وقد نكون جميعا بالضرورة نتعامل مع منتجات الحضارة الحديثة ولكن بالفعل قد نكون أبعد ما يكون عن الحضارة الإنسانية وعياً وسلوكاً.

« التفكير الجديد عندما يصبح أسلوب حياة»

عندما يتكلم إنسان بأفكار جديدة قد نجد بعض الناس يشعرون بألفه تجاهها بل ويظن البعض الآخر أنها ليست جديدة بل إن بعضاً منها معروف بالفعل، وهذا الظن لا يغنى من الحق شيئاً، فالمبدع لا يخترع أفكارا بل يعيد تنظيم الأفكار وتكوين نسق فكرى جديد قد يتخارج فى أنماط و أفعال جديدة مبدعة، وما يميزه عن غيره هو أنه يستطيع أن يتحرر من سلطة التبعية النفسية للآخرين فى أفكارهم، فهو دائماً يعيد تقييم أفكاره وفقاً لخبراته وظروف واقعه المتغير حوله، وهو يقابل فى ذلك ضغوط الاختلاف عن الآخرين والذى قد يُشعر بعض الناس بالضيق تجاهه، أو أن يتخيلوا أنه يتعالى بطريقة تفكيره عليهم، وقد تعمل هذه الضغوط إلى تقليل إبداع الإنسان إذا ركز عليها كثيراً، أما إذا طوَّرمن طريقة مواجهته لهذه الضغوط وكيفية إدارتها لصالحة قلّل من أثرها عليه، وعندما يبدع الفرد أفكاراً فاعلم أن وراء هذه الإبداعات خبرات تراكمها عمل على تنمية وتطوير أسلوب تفكيره كيفيا، فكما هو معلوم بالضرورة التراكمات الكمية تؤدى إلى تغيّرات كيفية.

وإبداع أفكار وأفعال جديدة لا يأخذ قيمته فى حداثته فقط بل فى فائدة هذا التفكير فى تطويرواقع الإنسان وعلاقته مع هذا الواقع، كما أن هذا لا يعنى أن تفكير الإنسان قبل أن يطوّره كان خطأ بل كان أقل حداثه وتطورا، وهناك سبب أعتقد بأهميته فى دفع الإنسان للمحافظة على كثير من أنساق تفكيره القديم وهو الخوف من الخطأ، فالخوف من الخطأ هو خطأ فى حد ذاته، خطأ فى وعى الإنسان بكونه إنسانا يتعلم ويطوّر من أخطائه ليرتقى بإنسانيته، كما أن تطوير أساليب تفكير الإنسان لا يعنى التخلى عن ثوابته القيمية بل تطوير التفكير فيها هو إدراك أبعاد عميقة فى هذه القيم يعزّز منها ويضفى لها معانى، فلا يأخذ القيمة كفكرة نمطية جامدة بل بأن لها أبعاداً لها تأثير على الفرد والواقع المحيط به.

الالتزام بالأهداف

الالتزام بالأهداف ليس مفتاحاً للنجاح فقط بل يعد نجاحاً فى حد ذاته، فالنجاح نسبى فى كمه وكيفه من شخص لآخر، لكن الالتزام والمواظبة على الأهداف فى تحقيقها هو تهذيب للشخصية، أى إضافة خاصية مهمة تساعد الإنسان على تغيير أو تطوير واقعه، وهنا أشير إلى أن الالتزام بالأهداف يأخذ قوته إذا كانت هذه الأهداف صعب تحقيقها فى الواقع، وكلما زادت التحديات زاد الالتزام بالأهداف، فالنجاح لا يعنى ا إذا حققت شيئا روتينيا يكون نتيجة لأسباب بسيطة أوصلت إلى هذا النجاح، بل عندما تصعب الأهداف التى تؤدى إلى النجاح كنتيجة لهذه الأسباب، و إذا تعوّدت النفس على تحدى الواقع تميزت عن هذا الواقع بهذا التحدى الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى تميزها فى هذا الواقع، ولا غرو فى ذلك عندما نرى أن الناجحين نجاحاً مميزاً واقعهم مختلف، مختلف عن واقع عموم الناس ، ليس معنى ذلك رؤية دونية لهؤلاء العوام بقدر ما هى رؤية ذات وجاهة للشخص الناجح، عندما يتعوّد الانسان على تحدى الواقع يكتشف نقاط قوته التى كان يجهلها بدون هذا التحدى وفى معرفته هذه قوة ، قوة على قوة، قوة المعرفة وقوة الفعل ، التى تساعد الإنسان على التوصل لقوة البصيرة، وفى البصيرة يجد الإنسان الإدراك الواعى ،فهو يرى الأشياء بأبعادها غير المعتادة، هو يرى المعنى، لذلك فهو يضفى للأشياء معنى ولا ينتظر أن تضيف له الاشياء معنى.

د. محمد السيد عبد الفتاح
أستاذ الصحة النفسية